Adab Al-Rafidain

https://radab.mosuljournals.com

The memory of the place in the poetry of Al- Khansa

Ghazwan Abdulsalam Abdulrazaq
A.M.Student/ Department of Arabic language / College of Arts / University of Mosul

Sallah Ahmad Salih
Asst.Pof./Department of Arabic language / College of Arts / University of Mosul

Article Information

Article History:
Received December21, 2023
Reviewer December 28 ,2023
Accepted January14, 2024
Available Online September1, 2024

Keywords:
The place
Memory
Remembrance
Khansa

Correspondence:
Ghazwan AbdulsalamAbdulrazaq
ghazwanaliraqi7@gmail.com

Abstract

The place is of importance big for a Human since long time ago, as it expresses the feelings and feelings that he is involved in himself, especially when passing through some places where a person has memories related to it, and The place was important in all creative fields, as it is still receiving the attention of researchers and critics because of its importance in human life in general and poets in particular, and it was important for some Western critics such as Gaston Bachelard in his book (Aesthetics of the Place) in which he dealt with the importance of some places in humans

This, and the place formed a symbol of poetry in Arabic literature in the past and modern, but he did not pay attention to it as an influential factor in the consequences of the anniversary except for a hadith. In the war, or their quality and generosity of their morals in peace, it was necessary to express a sincere expression of the privacy of places that witnessed the standards of the remembrance of the remembrance of the most prominent features that were characterized.

The place, memory, remembrance, memory The place is of great importance for a person from ancient times, as it expresses the feelings and feelings that he is involved in himself, especially when passing through some places where a person has memories related to it, and the place was of importance in all creative fields, including (literary, psychological, and critical ...) It is still receiving the attention of researchers and critics of its importance in human life in general and poets in particular, and it was important for some Western critics such as Gaston Bachelard in his book (Aesthetics of the Place) in which he dealt with the importance of some places in humans**.**

This, and the place formed a symbol of poetry in Arabic literature in the past and modern, but he did not pay attention to it as an influential factor in the consequences of the anniversary except for a hadith. In the war, or their quality and generosity of their morals in peace, it was necessary to express a sincere expression of the privacy of places that witnessed the standards of the remembrance of the remembrance of the most prominent features that were characterized**.**

DOI: 10.33899/radab.2024.145489.2047©Authors, 2023, College of Arts, University of Mosul.
This is an open access article under the CC BY 4.0 license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

ذاكرة المكان في شعر الخنساء

غزوان عبد السلام عبدالرزاق* صلاح احمد صالح**

* طالب ماجستير / قسم اللغة العربية / كلية الآداب / جامعة الموصل

المستخلص

حظي المكان بأهمية كبيرة عند الإنسان منذ القدم إذ به يعبر عمّا يختلج في نفسه من مشاعر وأحاسيس ولا سيما عند المرور ببعض الأماكن التي يكون فيها للإنسان ذكريات مرتبطة بها ، وقد كان المكان ذا أهمية في المجالات الإبداعية كافة إذ مازال يحظى باهتمام الباحثين والنقاد لأهميته في حياة الإنسان خاصة والشعراء عامة ، وقد كان ذا أهمية عند بعض النقاد الغربيين من أمثال غاستون باشلار في كتابه (جماليات المكان) الذي تناول فيه أهمية بعض الأماكن عند الإنسان .

قد شكل المكان رمزا من رموز الشعرية في الأدب العربي قديما وحديثا، ولكن لم يلتفت إليه بوصفه عاملا مؤثرا في تداعيات الذكرى إلا حديثا ، فقد جاء سعي الخنساء في شعرها الذي رصدت فيه محامد كل من أخويها وزوجها، مبرزة حدود المكان الذي شهد بعض صولاتهم في الحرب، أو جودهم وكرم أخلاقهم في السلم ، فكان لزاما أن تعبر تعبيرا صادقا عن خصوصية الأماكن التي شهدت معايير انفراد المُتَذكر بأبرز المميزات التي اتسم بها.

الكلمات المفتاحية : المكان ، الذاكرة ، التذكر ، الخنساء

المقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسولنا الكريم وسيدنا وحبيبنا وقائدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فقد حظي المكان بأهمية كبيرة عند الإنسان منذ القدم إذ به يعبر عن ما يختلج في نفسه من مشاعر وأحاسيس خصوصاً عند المرور ببعض الأماكن التي يكون فيها للإنسان ذكريات مرتبطة بها ، وقد كان المكان ذا أهمية في المجالات الإبداعية كافة ومنها (الأدبية والنفسية والنقدية ...) إذ مازال يحظى باهتمام الباحثين والنقاد لأهميته في حياة الإنسان خاصة والشعراء عامة ، وقد كان ذا أهمية عند بعض النقاد الغربيين من أمثال غاستون باشلار في كتابه (جماليات المكان) الذي تناول فيه أهمية بعض الأماكن عند الإنسان ، إذ تعتمد قراءة الشعر العربي على المكان بوصفه مقياسا لفضاء الخطاب الذي تضمنه، ولتعبير المكان عن الأجواء النفسية والوجدانية الحقيقية التي تمثلها الشاعر فيه حين عرضت له فكرة النظم في موضوع ما، فهناك آصرة قوية تربط الإنسان بالمكان وليس أدل على ذلك من أن الإنسان متعلق بالمكان فلا يكاد ينزاح عنه .

قد شكل المكان رمزا من رموز الشعرية في الأدب العربي قديما وحديثا، ولكن لم يُلتفت إليه بوصفه عاملا مؤثرا في تداعيات الذكرى إلا حديثا ، فقد جاء سعي الخنساء في شعرها الذي رصدت فيه محامد كل من أخويها وزوجها، مبرزة حدود المكان الذي شهد بعض صولاتهم في الحرب، أو جودهم وكرم أخلاقهم في السلم ، فكان لزاما أن تعبر تعبيرا صادقا عن خصوصية الأماكن التي شهدت معايير انفراد المُتذكر بأبرز المميزات التي اتسم بها.

وقد بنيت هذه الدراسة على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة عرضنا فيها أهم النتائج التي توصلنا إليها ، فقد أظهرنا في هذه الدراسة القيمة الفنية والنفسية والوجدانية للأماكن التي تعرضت الشاعرة لذكرها واسترجاع صورها واستدعائها من ذاكرتها لما تمثله لها تلك الأماكن من أهمية كبيرة تعيدها إلى الماضي كلما وقفت عليها، أو مرت بها، أو طار ذكرها في سمعها، فشكلت منها صورتها الشعرية، بتمثلها في خطابها ، وقد جاءت بمبحثين الأول بعنوان تداعيات الذكرى، واستنطاقُ المكان والثاني ذاكرة الأنا والآخر.

وقد سارت هذه الدراسة على وفق المنهج التحليلي الوصفي ، لقراءة المنجز الشعري عند الخنساء في ضوء معيارية الصورة واللغة الشعرية التي أنتجت بها فحوى خطاباتها المسترفدة من الذاكرة .

التمهيد

تعتمد قراءة الشعر العربي على المكان بوصفه مقياسا لفضاء الخطاب الذي تضمنه، ولتعبير المكان عن الأجواء النفسية والوجدانية الحقيقية التي تمثلها الشاعر في المكان حين عرضت له فكرة النظم في موضوع ما، فهناك آصرة قوية تربط الإنسان بالمكان وليس أدل على ذلك من أن الإنسان متعلق بالمكان فلا يكاد ينزاح عنه فإن" العلاقة وثيقة بين الإنسان والمكان، فكلاهما جزء من الآخر، وهي علاقة بدأت قبل ميلاد الإنسان، ولا تنتهي إلا بوفاته"[1]، ومن منطلق هذه الفكرة، جاء سعي الخنساء في شعرها الذي رصدت فيه محامد كل من أخويها وزوجها، مبرزة حدود المكان الذي شهد بعض صولاتهم في الحرب، أو جودهم وكرم أخلاقهم في

** **استاذ مساعد / قسم اللغة العربية / كلية الآداب / جامعة الموصل**

(1) الرواية السعودية المعاصرة (دراسة في مكونات النص الروائي)، د. زهير حسن العمري، دار المصري للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2012م : 179.

السلم، فمن ناحية كون "قصائد الرثاء التي تخص الذاكرة عند الشعراء ما هي إلا رد فعل لخبر الموت"[1]، كان لزاما أن تعبر تعبيرا صادقا عن خصوصية الأماكن التي شهدت معايير انفراد المُتذكر بأبرز المميزات التي اتسم بها .

وقد شكل المكان رمزا من رموز الشعرية في الأدب العربي قديما وحديثا، ولكن لم يلتفت إليه بوصفه عاملا مؤثرا في تداعيات الذكرى إلا حديثا؛ " فالذاكرة والمكان صنوان ، وهما عنصران لا ينفصلان عن بعضهما ، فلا وجود لأحدهما من دون الأخر، لذلك احتل المكان حيزاً كبيراً في النتاج الأدبي شعراً كان أم نثراً "[2] وقد شغلت التشكلات المكانية في الرواية والقصة من الاهتمام للنقاد أكثر ما شغلته من القيمة نفسها في الشعر، وقد التفت لأهمية المكان وما عساه يضفيه على الخطاب الشعري من طرافة وقوة ، من خلال إجابة بعضهم على التساؤل المُلح: " كيف تصبح الصورة الفنية التي أبدعها الشاعر ملكا للقارئ؟...، أي أننا حين نقرأ –مثلا- وصفا لحجرة، نتوقف عن القراءة لنتذكر حجرتنا، أي أنّ قراءة المكان في الأدب تجعلنا نعاود تذكر بيت الطفولة"[3]، والأمر ليس حصراً في استعادة القارئ – حين يطالع خطابا شعريا – في أيام الطفولة، بل إن هيمنة الأماكن التي عاش فيها الإنسان وتعرض فيها لأحداث مختلفة تترك في ذاكرته تأثيرا ظاهرا يرجعه إليها مهما اختلف كنهها ، ومهما اختلفت مرحلته العمرية التي شاهد فيها تلك الأماكن.

فالمكان عند الشعراء لم يكن مجرد موضوع (ثيما) يتبع فيه الشعراء بعضهم بعضا سواء كان تقليداً أو مسايرة على أنماطهم السائدة ، فهو عند الخنساء يعبر عن الانزعاج والحسرة بما يمثله ذلك المكان من حمولة استعادتها الذكريات في شعرها مشيرة بها إلى من تحدثت عنهم في أغلب شعرها سواء بمدح أو برثاء أو بغيره من موضوعات الشعر العربي ، ولا يعني تكرار الخنساء لأماكن بعينها أنها لم تجد ما تقوله، أو ما تعبر به عن زفراتها المتصاعدة من صدرها تعبيرا عن حسرتها التي تملأ كيانها، بل إنها اصطفت أماكن معينة لتمثيلها "حالة من الإبداع الشخصي، الذي تشكله بوصفه رمزا من رموزها الخاصة"[4]، وتعمل على إيداعه شيئا من بقايا روحها المبعثرة التي تناثرت أشلاؤها بين مكان وجودها هي بين الناس، ومكان وجود أخويها صخر ومعاوية تحت الثرى، ما يعبر لنا عن حجم التصدع النفسي الذي يبدد كيانها هنا وهناك، والتشظي الروحي الذي تعيشه فتجاري الذكريات وتستدعيها من اللاوعي محاولة أن توفق بين ذلك الماضي الأليم والحاضر المرير.

المبحث الأول

تداعيات الذكرى، واستنطاقُ المكان

وفيما تجلي من خلاله الخنساء عن ذاكرة المكان، حين مقتل أخيها معاوية على يد هاشم بن حرملة المري[5]، من قولها نعيا له وبكاء عليه [6]: (الوافر)

وَقَوْلِي إنَّ خَيْرَ بَنِي سُلَيمٍ وَأكْرَمَهُم بِصَحرَاءِ العَقِيقِ[7]

فَإنّكَ والبُكَا بَعدَ ابنِ عَمْرٍو لَكَالسَّارِي سِوَى وضَحِ الطَّرِيقِ

(1) أسس الشعر العربي الكلاسيكي (الشعر العربي القديم)، إيفالد فاجنر، ترجمة: د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2008م : 197 .

(2) الذاكرة والمكان (قراءات في الأدب العربي) : د .سالم محمد ذنون العكيدي ، دار ماشكي ، الموصل ، العراق ، ط1 ، 2022م : 11 .

(3) جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1984م ، مقدمة المترجم : 7 .

(4) شعرية المكان في الأدب العربي الحديث: بطرس الحلاق - روبن أوستل – شتيفن فيلد، ترجمة: نهى أبو سديرة وآخر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 2014م : 124 .

(5) أيَّام العرب في الجاهلية، محمد أبو الفضل إبراهيم – علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د ت ، د ط : 283 .

(6) ديوان الخنساء، شرح لأبي العباس ثعلب، تحقيق: د. أنور أبو سويلم، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1988م: 64-65 .

(7) العقيق: عقيق غمرة، وهو مرحلةٌ على ظهر طريق الكوفة، وقيل هو وادٍ لبني سليم، ديوان الخنساء : 64، وقيل: غمرةُ موضعٌ وهو فصلٌ بينَ نجدٍ وتهامة من طريق الكوفة، معجم ما استعجم، أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز البكري، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 2001م: 1004/2 .

فعلاقة المكان الذي قتل فيه أخو الخنساء في هذا الخطاب الشعري، بتذكّرها له ليست علاقة سطحية أو مفروضة على النص، أو مقحمة فيه إقحاما غير لازم، بل هي نواة الخطاب ومداره الذي انطلقت منه، فهي تخاطب عينها بعد مطالبتها لها بأن تريق الدمع حزنا عليه من قولها[1]:

هَرِيقِي مِن دُموعِكِ واسْتَفِيقِي وَصَبْرًا إنْ أطَقتِ وَلَن تُطِيقِي

آمرة لها أن تقرّ بأنّ أخاها لم يعد من أهل الدنيا، بل إنّ روحه التي حلقت في فضاء ذلك المكان بعد قتله، لم تزل تحوم فيه، وذلك الذي قال به ثعلب في شرحه على ديوان الخنساء[2]، فهو يرى أنّ عقيق غمرة هو المكان الذي قُتل فيه معاوية أخو الخنساء، غير أن بنية الخطاب في هذا النص توحي بغير ذلك، فإنّها تأمر عينيها بالبكاء على أخيها مستدعية من الذاكرة ما يحثها على النشيج والعويل، ولعل الذي قال به يعقوب بن السكيت [3] أقرب للصواب من ذلك الذي قال به ثعلب، فـ(عقيق غمرة) أقرب لأن يكون مكان دفن أخيها معاوية وليس مكان قتله، فأمرها لعينيها بالنشيج والعويل على أخيها؛ كان بسبب تذكرها للمكان الذي دفن فيه أخوها، فهو ألزم له من المكان الذي قتل فيه، وتذكر الوقائع الأليمة بمكان الموت أولى من تذكرها بمكان القتل.

وكان مقتل معاوية أخ الخنساء بسبب اجترائه على أسماء بنت المرية، وكانت تحت هاشم بن حرملة، فقتله "هاشم وأخوه دريد ابنا حرملة المريّان من غطفان"[4] بسبب ذلك، وكان مقتله يوم حوزة الأوّل[5]، وفي إشارة إلى ذلك يخبر صاحب أيّام العرب في في الجاهلية، بأنّ معاوية قد "وافى عكاظا في موسم من مواسم العرب فبينما هو يمشي بسوق عكاظ إذ لقي أسماء بنت المرية، وكانت جميلة، فدعاها لنفسه فتمنعت إليه، وقالت: أما علمت أني عند سيد العرب هاشم بن حرملة"[6]، وذلك أدلّ على أنّ استرجاع الخنساء لذكرى المكان الذي دفن فيه أخوها هو ما حملها على العويل والنشيج، لا تذكّرها لمكان مقتله، فقد قتل يوم حوزة الأوّل، وحوزة واد بالحجاز[7]، وبين حوزة وعقيق بني سليم مسافة، فالأرجح أنّها بكت المكان الذي دفن فيه.

أما في البيت الثاني من هذين البيتين، فتلقي بالملام على عينها حال أنّها بكت على غير معاوية، موظفة صورة استعارية بارعة في تحديد ملامح الذكرى التي جعلتها تحرم البكاء على غير معاوية أخيها، إذ مثلت لنفسها عندما بكت على غير ابن عمرو أخيها بمن يطلب الهدى ليلا في الظلام، وهي من الاستعارات التمثيلية التي عبرت عن المعنى أحسن ما يكون التعبير ، فشبهت حالها إذا أراقت عينها الدمع على غير أخيها بالساري ليلا على غير هدى يطلب الطريق، ليس لتضفي على مضمون الخطاب الشعري صورة جمالية وحسب، بل لتعطيه قيمة معرفية وتأثيرية، من خلال تلك المسافة التي انتظمتها العلاقة بين المشبه (المستعار له) والمشبه به (المستعار)، فـ" العامل في تأثير الاستعارة هو المسافة بين المشبه والمشبه به، أو كما يقول سايس (Sayce) زاوية الخيال"[8]، والمستهدف ذلك الجانب المعرفي الذي يلهم الشاعر خطابا مؤثرا، وفي ذلك النوع من التشبيهات، تجلي الذاكرة عن حدتها وامتداد آثارها على فكر الخنساء، حتى إنها لم تجعل لها سبيلا لرؤية غير أخيها معاوية فيمن ماتوا.

فهي هنا وإن لم تذكر لفظ القبر، الدال على الموت والافتقاد والرحيل الأبدي؛ بسبب سيطرة جموح الذكرى عليها بما لا يدع لها مجالا لتصديق فكرة أن أخاها لن يعود مرة أخرى، إلا أنها أوردت ذكر الوادي الذى ثوى فيه جثمان أخيها، تعريضا بأن موته حقّ، ولكن مجده باق، مع إرادة إثباتها أنّ لهذا المكان "قيمة خاصة وعالية فلا يسمح بالتعدي عليه"[9]، فهذه علاقة تفارقية لا تحدث إلا بذلك التوظيف الضدي لظواهر اللغة.

فلما لم يمكنها الرجوع إلى الماضي والعيش فيه، سعت -من خلال الذكرى- إلى استنطاق الماضي بالتعايش معه في نظمها، والاستدلال عليه بكلّ ما تيسر لها من سبل استعادته واستحضاره نصب عينيها في الواقع الذي تحاول مليّا الفرار منه؛ لأنّه لا يشكّل لها

---

(1) ديوان الخنساء : 62 .

(2) ينظر: ديوان الخنساء :64 .

(3) ينظر: ديوان الخنساء : 64 هامش رقم (5).

(4) الكامل في اللغة والأدب : أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ت (285ه) ، تحقيق، د. عبد الحميد هنداوي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، المملكة العربية السعودية ، د ط ، 1998م : 254/1 .

(5) أيام العرب في الجاهلية : 283 .

(6) أيام العرب في الجاهلية - يوم حوزة الأول : 283.

(7) أيام العرب في الجاهلية : 283، هامش (*) .

(8) الاستعارة في النقد الأدبي الحديث (الأبعاد المعرفية والجمالية)، د. يوسف أبو العدوس، الأهلية للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1997م : 11.

(9) جماليات الزمان والمكان في شعر ذي الرمة، د. عائشة محمد عمر سليمان، مجلة القرطاس للعلوم الإنسانية، بنغازي، ليبيا، ، عدد 17، 2022م : : 153 .

سوى صورة حية من الهموم والمآسي، فأعوزها ذلك إلى التوغل في زوايا نفسها واعتصار روحها وفكرها لاستحضار الأشخاص الذين لا تنفكّ تحنّ إليهم، فـ"الوجود البشريّ يعيش في تفاعل مستمر مع غيره من الموجودات"[1] وهي لم تعد تشعر وترغب في ذلك التفاعل مع أحد، ففي شعورها بالانتماء المفرط – بذاكرتها – إلى شخصيات شعرها الذين تتذكرهم ، بلغت حدّ الكفاية، فاقتصرت على مجرد استنطاق الماضي بما فيه من ذكريات تخص هؤلاء الأشخاص.

وتظهر انعكاسات زاوية الرؤية لدى الخنساء فيما أيقظته في نفسها هذه الذكرى المؤلمة من أحداث ووقائع ربطتها بالمكان، الذي جرت فيه، فكانت تلك الذكرى بمنزلة الحافز الذي عزز من دافعية التذكر وسرعة الاستحضار، لتثب الفكرة القديمة إلى ذهنها مشكلة للوازع من النحيب والبكاء، فقولُها [2]: (الوافر)

أَلَا يَا لَهْفَ نَفسِي بَعدَ عَيشٍ لَنَا بِجَنُوبِ دَرَّ فَذِي نَهِيقِ

وَإِذْ تَتحاكَمُ الرُّؤسَاءُ فِينَا لَدَى أَبيَاتِنا وَذَوو الحُقُوقِ!

فهي وإن كانت سعت لاسترجاع الذكرى بإسقاط أحداثها ، لتستعين بذلك المكان الذي دفن فيه أخوها معاوية على بكائه والتحسر على ثوائه به وهو خير بني سليم، وأحقّهم بالعيش ممن هم على قيد الحياة ولا يستحقونها، فإنها في تلك الأبيات تعالج مرارة فقدها لأخيها بما أصابها من بعده من الهوان وفوات الحظ ورغد العيش الذي كانوا فيه في تلك البقعة وحياتهم الهنيئة، وكيف أنّ الحال تغير فتحولت إلى نقيض ما كانت عليه من الرخاء وهناء العيش.

فاستذكارها هنا ليس للمكان الذي عبرت عنه بهذين الموضعين (درّ) و(ذي نهيق)، بل لما كان عليه حالها في هذه الأماكن قبل مقتل أخيها، فهي مقارنة للحالة الاجتماعية، بين ما كانت عليه وما صارت إليه، عبر ما يمكن أن تصل إليه في إطار حدود المكان الذي يمثل شاهدا على كلتا الحالتين، إذ إنها تنظر لهذا النوع من التحول السريع في حالها عبر مرآة المكان، فقد كان لهذين الواديين درّ، وذي نهيق[3]، دورٌ ملحوظٌ في استحضارها لتلك الذكرى، بما ينسب إليهما من الرخاء الذي عاشته فيهما ؛ فـ " المكان يمنح الشاعر الذكريات ، وهذه الأخيرة تقوم على تفعيل الذاكرة وتنشيطها من خلال استثارة لواعج الحنين إلى المكان وما فيه "[4] ، وقد وظفت بعض الظواهر اللغوية التي من شأنها تعزيز مقاصد النظم، وإعطاء الذاكرة مساحة رحبة يمكن من خلالها تقوية الآصرة بين الذكرى وأسبابها التي دعت الخنساء إلى اللجوء إليها، فقد شرعت بالحديث عن تلك الذكرى بأداة التنبيه (ألا) متبوعة بـ(يا) وكلاهما لإفادة أنّ أمرا شديد الأهمية سيلقى على المخاطب، فيجب عليه الإصغاء له، فـ(ألا) حرف يراد منه "استفتاح الكلام وتنبيه المخاطب "[5]، فكان حرف التنبيه كالمرجع الذي يعزز من الحكم على طبيعة الخطاب، ومدى ما هو عليه من الأهمية المرجوة لشيء من العناية به.

وإن في نسبة الرخاء والرغد في العيش الذي كانت تتمتع به في حياة أخيها إلى هذين الواديين دليلاً على تيمن الخنساء بهما، وحبها لهما وتمسكها بماضيها الذي قضته هناك ؛ فـ " ذاكرة المكان تعتمد على استرجاع الانفعالات والأحاسيس والمشاعر المرتبطة ببيئة معينة كان للإنسان فيها ذكريات متنوعة ومختلفة ، منها ما هي ذكريات مؤلمة وحزينة ، ومنها ماهي ذكريات مبهجة ومفرحة "[6] وقد ربطت بين قولها: (عيش) وقولها: (بجنوب درّ فذي نهيق) بالباء الجارة لكلمة (جنوب) ليستدلّ المخاطب على أنّ العيش المذكور في البيت مرتبط بهذا المكان تحديدا وحصراً فيه، والباء – على ذلك – لإفادة الظرفية، فهي هنا بمعنى (في) الجارة، و"علامتها أن يحسن في موضعها (في) نحو: ﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾ آل عمران : 123. "[7]، وإنما تعني أنها كانت تنعم بعيشها في هذا المكان، ولكنها أتت بالباء الجارة الدالة على الظرفية بدلا من (في) الجارة، لإقامة الوزن من ناحية، ومن جهة أخرى لتظهر مدى ملاصقتها لهذا المكان وقربها منه.

وإنّ من مظاهر هذه اللهفة التي حملتها عليها الذكرى المستجلبة بمعاينة المكان الذي كانت تعيش فيها عيشة الرخاء، أو قربها منه، أنّها قارنت بين حالها المزري الذي تحولت إليه بعد أنّ كان رؤساء القوم يلجؤون إلى دارهم ليحكم بين المتخاصمين منهم في كل منازعاتهم ، فأرجعها ذلك راغمة إلى ذكرى هذا المكان الذي كانت تقام فيه الحكومة من أخيها في المنازعات بين رؤساء

(1) الوجودية، جون ماكوري، ترجمة: د. إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، عدد 58، 1982م: 115 .

(2) ديوان الخنساء : 67-68 .

(3) درٌّ، وذو نهيقٍ: قلتان في بلاد بني سليمٍ، يبقى فيهما ماء الربيع والشتاء إلى أن يذهب في الصيف، معجم ما استعجم: 549/2 .

(4) الذاكرة والمكان (قراءات في الشعر العربي) : 11.

(5) الجنى الداني في حروف المعاني: الحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة – محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992م: 381 .

(6) الذاكرة والمكان (قراءات في الشعر العربي) : 10 .

(7) الجنى الداني في حروف المعاني: 40 .

القوم، فكان تعبيرها بقولها: (لدى أبياتنا...) باعثا على الشعور بهذه السعة التي كانت تعيش فيها، التي دلنا عليها جمعها لكلمة (بيت) على (أبيات) مضافة إلى ضمير المتكلّم (نا) إضافة معنوية محضة مشعرة باختصاص المضاف بالمضاف إليه، وهذا النوع من الإضافة "يسمّى بإضافة الملك والاستحقاق، وضابطها أن يكون المضاف إليه مالكاً أو مستحقا"[1]، فتذكرها هنا لأنّها كانت مالكة لتلك الأبيات التي يهوي إليها رؤوس القوم للاحتكام في قضاياهم والفصل فيها، مدعاة لتهييج الأسى الذي طالما أرادت ألا تخمده في نفسها إلا حين ترى من قومها ما يهدئ من وطأته عليها، بأن يأخذوا بثأره من قاتليه "من بني مرّة وفزارة"[2]، ومن أجل ذلك تستعيد الوقائع ممثلة في الأماكن التي جرت فيها؛ للتسلي بما يلهيها عن الماضي من عزّة وشرف، عما يتراءى لها من الذلة والهوان في قومها، لاسيما أنّها لم تعد تنعم بمثل ما كانت تنعم به من الهدوء والطمأنينة، وأنّهم أي قومها تخاذلوا عن نصرة أخيها والانتقام لكرامتهم التي مثل بها بنو مرّة وفزارة عندما تجاسروا على قتل أخيها معاوية.

وقد توقفت بها الحياة هنا عند هذا الحد، فجعلت تستدعي الذكريات من أعماق عقلها؛ لتعتاش عليها، شعورا منها بأنّ التحامها بالواقع ورجوعها للامتزاج به سيشكّل عبئا عليها، فهي لم تستطع – وفقا للفكر الوجوديّ – أن تحافظ على المسافة الآمنة بينها وبين الأشخاص الذين ارتبطت بهم إلى الغاية التي جعلتها تربط كل شيء بهم، كما لم تحفظ المسافة بينها وبين قومها، فكانت مطالباتها لهم بالقصاص لأخويها المقتولين، بدافع من شعورها بقوة هذه العلاقة، فإنّ "دراما العلاقة بين الأشخاص تتمثل – إن صحّ التعبير – في التوتر بين العلاقات والمسافة، ففي بعض الأحيان ينزلق الآخر إلى المسافة، وتضيع العلاقة الأصلية"[3] وهذا الإخفاق ما ما قاد الخنساء إلى التكيف مع الماضي ومحاولات استنطاقها له كيفما كان؛ لأنها ترى في رثائها ومطالبتها بدم أخويها عوضا لها عن فقدهما.

وفي قولِهَا [4]: (المتقارب)

فَنَفْسِي الفِدَاءُ لَهُ مِنْ فَقِيدٍ أَبَتْ أَنْ تُزَايِلَ إِعْوَالَهَا

حجّة دامغة على أنّها أبت إلا أن تبكي على مقتل أخويها، أو أن يفتدى كلّ منهما بنفسها فتلحق بهما، ومدار المعنى على أنّها لن تشفى مما هي فيه من الأسى عليهما مالم تلحق بهما إلى مثواهما الأخير، ومع أنها لم تصرح بذلك المعنى كما لم تظهر رغبتها في اللحاق بهما، إلا أنّ في تعبيرها بالفداء ما يدل على أنّ إيرادها لذكر المكان الذي انبثق منه الأسى لديها هو ذلك الذي ثوى فيه كلا أخويها، فضمنت العبارة تعريضا عن القبر الذي انتزعهما.

ويظهر من محاولة احتكام الخنساء إلى ذكر (الأبيات) التي كانت ملجأ الرؤساء يحتكمون فيها إلى أخيها، رمزية تجلت في إدراك الخنساء للمكان إدراكا حسيّا مباشرا...، مما يؤكد على حميمية العلاقة التي تربط بينها وبينه [5]، وذلك لما تعلمه من أنّ للمكان دلالة توصيلية، تحمل للمتلقّي رسالة بصرية تستهدف "بلوغ الغاية التي يريدها المرسل للمستقبل، أو نقل معلومة بواسطة ...، البصر"[6]، وكانت رسالتها التي حملت فحوى ذكراها للماضي معززة بشاهد حي من شواهد الحدث، فذاكرة المكان أشد دلالة على الأحداث التي أرادت أن تسوق البراهين على حجيتها.

وتقول أيضا وكانت قد آثرت عليها الذاكرة، فتولدت عندها شحنة دافقة من الشعور بالأسى النفسي، فسعت سعيها لتعزي نفسها في مصابها، مسلية إياها بتذكيرها أنّ كل من على الأرض من مَلك ومن مُلك سيزول كما زال الأولون [7]: (البسيط)

كُلُّ ابنِ أنثَى بِرِيَبِ الدّهرِ مَرْجُومُ وَكُلُّ بَيتٍ طَوِيلُ السَّمْكِ مَهدُومُ!

لَا سُوقَة مِنهُم يَبقَى وَلا مَلِكٌ مِمَّن تُمَلِّكُه الأَحْرَارُ والرُّومُ

(1) كشف المشكل في النحو : علي بن سليمان الحيدرة اليمني ، تحقيق: هادي عطية مطر، دمشق، سوريا، ط1، 1984م : 1/586-587 .

(2) أيام العرب في الجاهلية : 283 .

(3) الوجودية، جون ماكوري : 124 .

(4) ديوان الخنساء : 86 .

(5) ينظر: المكان في ذاكرة الشاعر الجاهلي : كاتب أمين ، مقال منشور عبر شبكة الألوكة : 2015 .

(6) التواصل غير المنطوق ديوان الخنساء(دراسة في السيميائية العربية): عفاف بنت عمر بن عبد الله العتيق، مجلة الدراسات اللغوية، مركز الملك الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، مجلد 16، عدد 1، 2014م : 160.

(7) ديوان الخنساء : 123-125، مرجومٌ، مرميٌّ، ديوان الخنساء :123.

هِيَ الشَّجَاةُ الّتي خُبِرْتُ مَنشَبُهَا خَلْفَ اللّهَى لَمْ تَسَوَّغْهَا البَلَاعِيمُ

تَاللهِ أنْسَى ابنَ عَمْرِو الخيرِ مَا نَطَقَتْ حَمَامَةٌ أو جَرَى فِي البَحْرِ غُلْجُومُ[1]

وبالنظر إلى هذه الأبيات نجد أن الخنساء فصلت فيها ذكر بعض الأماكن التي أثارت في نفسها الحمية نتيجة مقتل أخيها صخر، غير أنّها لم تقف على تلك الأماكن وقوف شعراء العرب على بعض المعالم المكانية بالبكاء والنحيب، بل عكست المغزى من إيرادها لهذه الأماكن، فقد كان الشعراء قديما يقفون على الأطلال؛ من أجل بكائها والنحيب على سكانها الذين تركوها، فهي إحدى الوسائل الفنية التي اعتمدوها في افتتاح قصائدهم، فـ" إنّ الوقوف على الديار والبكاء على أطلالها وسيلة فنية صغرى يقدمون بها بين يدي هذا الغزل نفسه في أغلب الأحيان"[2] وقد بدا وجه المخالفة ظاهرا بين ذكر الديار والوقوف على الأماكن ذات الطابع الخاص لدى الشعراء، وبين ما جلى عنه إيراد الخنساء لتلك الأماكن التي سنقف عليها تفصيلا في هذه الأبيات، فهي لم تقف على شيء من تلك الأماكن، بل ذكرته من قبيل استعماله رمزا يشير إلى حادثة انضوت تحت استعادتها لها من ملامح ذلك المكان، كما لم يكن غرضها الذي رددت من أجله ذكر الأماكن غزلياً بل كان رثاء استحدثته من ذاكرتها المثقلة بتلك الأحداث المأساوية .

وقد أبرزت عبر ثيما المكان كيف أنّ الموت يحل بكل دار مهما كانت عالية؛ ليحيلها بعد عمرانها بأهلها وسكانها إلى خراب مهدمة الأركان، فكان توظيفها للمكان وهو البيوت مشيرا إلى أنّها تسعى به إلى تسلية نفسها وتعزيتها في موت أخيها صخر، مذكرة إياها بأنّ كل حي مهما طال به العمر وعلت به المنازل سيؤول بعد رفعة المناصب وعظيم المكاسب إلى الموت، الذي ضمنت ما يفيد معناه في كلمة (مهدوم)، فرفعة البيت تقابل الحياة الهانئة الرخية، والهدم يقابل الموت والمصير إلى القبر، وتلك الثنائية الضدية التي عقدتها بين الحياة والموت ضمنيا تنم عن حقيقة ذلك التوتر النفسي والأجواء الحزينة التي تعيشها بعد فقدها لأخيها صخر، وإنها لينطبق عليها في ذلك الموقف تعريف المفارقة الشعرية، من حيث كونها " استراتيجية الإحباط واللامبالاة وخيبة الأمل، ولكنها في الوقت نفسه تنطوي على جانب إيجابي"[3]، وتكمن أهمية الجانب الإيجابي في هذه المفارقة الضدية التي صاغتها الخنساء من صورتين تمثيليتين بين الحياة بما تمثله لها من الرخاء والأمن والاستقرار، والموت بما يشكله من الخوف والاضطراب، في محاولتها للخروج عن نسق الحزن الذي دفعها إلى الاستغراق في الماضي، بتسلية نفسها بتذكر مآل الخلق جميعا.

وحيث جل الخطب بها عن أن تضع له عنوانا أو تتداركه بسلطة الصبر وقوة العزم على النسيان، تأتي بالمعاني المتأثرة بوقع الذّكرى على نفسها متتابعة دالة على هذا المقصد، ليتفق ويتشاكل ما تتكتم عليه طي خاطرها، إذ تعبر به عن خلجات نفسها المتأزمة، فتتشابك عناصر الذكرى لديها ويذوب بعضها في بعض مما يحملها على "أن تمنح العناية ذاتها للإنسان وللأشياء دون أن تلغي اهتمامها بذلك النسيج الأنثروبولوجي الكوني لحياة الإنسان"[4]، فهذا النسيج للذاكرة هو الذي جعلها تربط بين ذكرياتها مع أخيها، أخيها، وبعض الأماكن التي أسفر الحديث عنها عما يراودها من انطباعات تجاهها، فتؤكد على أنّ الموت مقدر على كلّ نفس مهما كانت، وفي أي مكان كانت، فكما أنها تؤمن بأنّ الموت سينال كل من على البر من أقوام وملل وغيرهم، فسينال كذلك كل من في البحر، فتعالج الذكرى التي تحاصرها من كل جانب مُقرّة أخيرا بأنها لن تتمكن من نسيان أخيها صخر، مدة نطق الحمام على اليابسة أو جريان الموج الدافق في البحر؛ لتعيدنا بذلك إلى نقطة البداية، فهي وإن كانت في سعي حثيث للنسيان والتسلي لإيمانها بحتمية الموت على كل نفس، إلا أنّ سيطرة الذكرى عليها تجعلها ترتد على أعقابها مقررة أنّ ما يقع منها حيال ذلك ما هو إلا محاولة باءت في نهايتها بالفشل؛ كون الذكرى أقوى من أن تتصدى لها.

وفي تصديها لإبراز مكامن الألم من نفسها بهذه الصورة التي تعطينا انطباعا بالاضطراب النفسي الذي يملك على الخنساء زمام أمرها، فيجبرها على استرفاد ملامح الذكرى في تصوير بديع تجمع فيه بين عناصر الطبيعة الحية (صوت الحمام، وتدفق ماء البحر)، تلويح باستجابتها السريعة لسلطان الذكريات، منطلقة مما للشعر على الشاعر من سلطان يدفع به إلى الاستجابة للمواقف الراسخة في الذهن على المدى البعيد أو القريب، و" إنّ وظيفة الشعر الكبرى هي أن يجعلنا نستعيد مواقف أحلامنا"[5]، وهي إذ تسعى

---

(1) الأحرار: تعني بهم الفرس، ديوان الخنساء :123، والذي يدلُّ على صحة ذلك وضعِهم في مقابلِ الروم.
الشَّجَاةُ: المنيَّةُ ، ديوان الخنساء : 124. العلجوم : موج البحر ، الماء الغمر ، ظلمة الليل ، القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت 817ه)، نسخة منقحة بتعليق الشيخ أبي الوفا نصر الهوريني المصري الشافعي (ت 1291ه)، راجعه وعلق عليه أنس محمد الشامي و زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 2008م: 1130.

(2) شعر الوقوف على الأطلال (من الجاهلي إلى نهاية القرن الثالث) دراسة تحليلية : د. عزة حسن، دمشق، سوريا، د ط ، 1968م : 13 .

(3) الرواية وفن القص (المفارقة في القص العربية المعاصر : سيزا قاسم) ، فصول مجلة النقد الأدبي ، المجلد 2 ، العدد 2 ، يناير – فبراير – مارس 1982م : 144 .

(4) جماليات المكان : 49 .

(5) جماليات المكان : 44.

تسعى قدما لنسيان هذا الماضي وهدم معبده الذي بنته في خيالاتها الذكريات السيئة عن مقتل أخيها، تحاول أن تعزي نفسها بما يعينها على ذلك .

وكان المكان هو المنطلق والدافع الذي جعلها تشعر بكل ماتحمله من أسى وفراق وذكريات أليمة جسدها ذلك المكان الذي ترتسم صورته بمخيلتها لأنه يذكرها بمكان فقد أخويها وغيرها من الذكريات الشجية التي حركت الشاعرة لمخاطبة نفسها والناس بهذا الشعر المرهف المتدفق عاطفة وإحساساً.

المبحث الثاني

ذاكرة الأنا والآخر

تبرز الإشكالية الواقعة بين الأنا والآخر حقيقة ذلك الاختلاف بين الناس وبعضهم، فكما تسعى إلى " دراسة العلاقة القائمة بين الفرد والجماعة"[1] فهي كذلك توضح مدى ما قد تصل بهم إليه هذه الثنائية من عوامل الاختلاف الذي قد يولد خلافا في الرأي والاتجاهات، ولكن حالما كانت الأنا الأخرى هي نفسها الأنا لا يكون بينهما خلاف، بل إنّ الواحدية التي جمعت بين أنا الشاعر أو الفنان المبدع في أي فن من الفنون والآخر تجعله متماهيا مع تلك الذات الأخرى التي تسكن ذاته، فيحس بها ويعبر عنها، بما يضع متلقي كلامه عن الأنا أو الذات الأخرى في منظور واحد مع أنا الشاعر أو الفنان، فلا يكاد يميز أو يفصل بينهما؛ لاتحادهما في الماهية والشعور[2].

وإنّ لهذا المفهوم ارتباطا واتصالا شديدا بالفنون الأدبية، بل يشكل أحد أبرز العناصر النفسية والفلسفية التي تقوم عليها تحليلات كثير من النصوص الشعرية، لنصل من خلاله إلى فهم مقاصد الشاعر، واستيعاب دوافعه النفسية والوجدانية التي دعته إلى النظم تعبيرا عن ذاته وذات أخرى ارتبطت بها ذاته، "ولذلك فهو يستفيد في عرضه لموضوعه واستكشافه لخباياه بأفكار عدة مستمدة من حقول معرفية أخرى، كالفلسفة وعلم النفس والتاريخ، فضلاً عن الدراسات الأدبية"[3]، فهي ثنائية ذات أبعاد متباينة، ولذلك كان لها شديد الاتصال بحقول المعرفة الكثيرة.

وقد ظهر هذا الانسجام الذي بلغ حد التوحد بين الخنساء وشخصيات ذاكرتها التي قدمت لنا صورة شكلتها في ذهنها من مجموعة الوقائع والأحداث التي وقعت منهم زمن حياتهم، فأسهمت في الترسيخ لبقائهم أحياء في ذاكرتها، ممثلا في هذه الثنائية الأنا والآخر، فهي لم تكن لتشعر بمرارة الفقد ولوعة الحرمان من أخويها معاوية وصخر، ولا من ابن أخيها (كرز) ولا من زوجها مرداس؛ لأنها تحاكي في شعرها ما يبقيها على اتصال بهم، فحين ترسل الخنساء عويلها عبر فضاءات الزمن الذي لم يعد يمثل لها شيئا بعد فقدانها لهؤلاء، فإنها تعبر عن ازدواجية الحالة، فتتفاوت لديها العلاقة "بين الأنا والآخر بين النفي السلبي والتضاد المطلق، وبين التكامل والإغناء والتناغم بين هذه الشخصيات"[4] فهي مترددة بين نفسها والشخصيات التي تستدعيها من سجل ذاكرتها مرة، وبين نفسها وتلك الشخصيات التي ترى أنّ لشخصيات ذكراها عليها حقّا ولكنهم تخاذلوا عنه مرة أخرى.

ومن هنا يتضح لنا أنّ هذا التباين الذي نراه جليا في ذاكرة الخنساء التي نرى تجلياتها ظاهرة لنا في صورة ذكرى تسترجعها فتثير في نفسها الحزن والشجون، تقف عند حدين وتحلق عبرها من منظورين مختلفين، الأول: تماهيها وانسجامها مع الآخر ممثلة في شخصيات ذكراها ، والثاني: وقوفها موقف العدائية من الآخر ممثلة في شخصيات قومها؛ لتراجعهم عن الأخذ بثأر أخويها من قاتليهم، فعلاقتها بالآخر في إحدى الصورتين علاقة "تناغم وتنامّ"[5]، وعلاقتها بذلك (الآخر) في الصورة الأخرى، "علاقة نفي وتناقض"[6]، وذلك ما سنعرضه بالتفصيل ونحن نحلل النماذج التي هيمنت عليها الحالة النفسية والوجدانية المشكلة لاستدعاءات مواقف (الأنا، والآخر) من سجلات الذاكرة.

(1) الأنا والآخر في شعر المتنبي (دراسة في إشكالية الظاهرة وتجلياتها)، مفلح الحويطات، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، مجلد 33، عدد 131، 2015م : 144 .

(2) ينظر: الأنا والآخر في قصيدة " قراءة في وجه لندن " للشاعر غازي القصيبي مقاربة موضوعاتية : أشجان محمد هندي ، مجلة جامعة الملك عبد العزيز ، الآداب والعلوم الانسانية ، المجلد 26، العدد3، 2018م : 298.

(3) الأنا والآخر (ازدواجية الفن التمثيلي)، د. صالح سعد، عالم المعرفة، الكويت، عدد 274، 1990م: 7-8 .

(4) جدلية الخفاء والتجلي (دراسات بنيوية في الشعر)، د. كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط3، 1984م : 9-10 .

(5) جدلية الخفاء والتجلي (دراسات بنيوية في الشعر): 10 0

(6) جدلية الخفاء والتجلي (دراسات بنيوية في الشعر): 10.

ومن استنطاق الخنساء للذكرى التي تلوح لها من تضاعيف الماضي، فتفعم نفسها حزنا وألما بما لا تبقي معه أثرا للصبر إلا استنفدته، قولها الذي تتذكر فيه أخاها صخرا [1]: (الوافر)

تَـــــدِينُ الخَـــــادِرَاتُ لَـــــهُ إذَا مَـــــاَ ... سَـــــمِعْنَ زَئِيـــــرَهُ فِـــــي كُـــــلِّ فَجْـــــرِ!

فَإمَّـــــا يُمـــــسِ فِـــــي جَـــــدَثٍ مُقِيمَـــــا ... بِمُعْتَـــــــرَكٍ مِـــــــن الأرواحِ قَفْـــــــرِ

قَـــــوَاءٍ لَا يُلِـــــمُّ بِـــــهِ عَريـــــبٌ ... لِعُسْـــــرٍ فِـــــي الزَّمَـــــانِ وَلَا لِيُسْـــــرِ![2]

فمعولها في هذه الأبيات على الذكرى التي جعلت منها سبيلا لاستحياء الماضي الذي لا تجد من البقاء فيه ووصله بأيامها الحاضرة سبيلا، على أنّ هذه الذكرى التي ألمت بنفسها من كل جانب لم تكن وليدة الفراغ، بل لأنّها مرت بجدث أخيها صخر، أو ذكر عندها أمره فراحت تندبه بفعاله التي طالما دفعت عن ربات الخدور الأذى وأمنتهن في خدورهن حين كن يسمعن صوته يمر بالحي فيصيح فيه، فيأتيهن هذا الصياح في صورة زئير أسد يبعث في نفوسهن الراحة والطمأنينة.

فذكرها مكان دفنه استدعى هنا ذكرها لمكان آخر كان لصخر على أهله من الأفضال ما لم يعد أصحابه يشعرون به بعد موته، فصياحه فجرا في الحي حادث لم يكن ينفك عن الخدور التي ترغب رباتها في أن تنعم بالسكينة فيها، غير أنّ خوفها مانع لها من ذلك، إلى أن يأتيها صوت صخر فتصيح لها، فتهدأ، وهو مما جعل هؤلاء يدينون له بالفضل؛ لما كن عليه بسببه من السكينة والطمأنينة، بعد أن تحول إلى المكان الذي لا يجدي معه بكاء ولا ينفع معه عويل في محاولات استرجاعه، وهو قبره الذي لم يعد يقرب منه عريب في عسر ولا في يسر لثواء هذا الجدث في مكان قفر بعيد عن الناس في أرض موحشة.

وقد تمثلت الخنساء في صياغة هذا المعنى المستدعى من الذاكرة، في (أنا) الخادرات، كأنّ الحديث جارٍ على لسانهن اعترافا بفضله ومعروفه فيهن ساعة أن كان بينهن حياً، فكان تعبيرها جاريا على غير من هو له، فهي القائلة إلا أنّ القول لغيرها، وهذا أدل على المقصود، فحين تظهر فضل أخيها بلسان غيرها يكون ذلك أدعى لتصديقها، وأبعث لحزنها وحسرتها، غير أنّ هناك (أنا) أخرى على طرف النقيض من تلك التي عبرت عنها بدين الخادرات لأخيها بالفضل، تبعد في الغاية عنها، فمع أنّهن يدِنَّ بالفضل والمعروف له، إلا أنّهن في جملة من لم يفكر في زيارة قبره إيناسا لها وله في وحشته فيه، ودل على ذلك قوله:

قَـــــوَاءٍ لَا يُلِـــــمُّ بِـــــهِ عَريـــــبٌ ... لِعُسْـــــرٍ فِـــــي الزَّمَـــــانِ وَلَا لِيُسْـــــرِ!

فكلمة عريب مستعملة في اللغة لمعنى (أحد) ولا تأتي إلا في سياق النفي المفيد للعموم، وقد ذهب ثعلب إلى ذلك المعنى ودل عليه إجمالا بقوله: "ويقال: ما بها عريب، أي ما بها أحد"[3]، فـ(عريب) إذن من "الألفاظ التي لا تستعمل إلا في النفي"[4]، وحيث كان كان للمكان أثر في استرجاع الأحداث والتعايش معها، ربطت الخنساء بين ضمير الغيبة المُعبر به عن الآخر إذ يدين لأخيها بالطاعة؛ لما كان يبذله لهم من جهده في سبيل أمنهم، وضمير الغيبة المُعبِر عن الآخر أيضا، إذ لم يحدُ به شعوره بالفضل إلى زيارته بعد موته؛ لمخافة المكان الذي ثوى فيه قبره، وقد اتخذ حديثها عن الآخر طريقه إلى الدلالة به على التماهي مع ذات الخنساء وذلك حين عبرت عن رضاها بفعل هذا الآخر، باعترافه بالفضل لأخيها، كما عبرت عن هذا الآخر أيضا بالصورة التي تبدي عدم رضاها عن فعله لما أبرزته في صورة المتخاذل عن إقامة الدليل عن دينه لصخر بهذا المعروف، إذ لم يزر قبره ولم يؤنسه في وحشته في هذه الأرض القواء.

---

(1) ديوان الخنساء : 185-186 .

(2) الخادرات: مفردُها (خادر) وهي الجارية المخدرة ، والخادر هو الذي لا يبرح خِدره . ديوان الخنساء: 185 .

جدَثٌ: هو القبرُ، وجدَثٌ بِنفسِ المعنَى، ديوان الخنساء : 185 .

قَواءٌ: الدارُ الخاويةُ التي لا يَطؤها أحدٌ، جواهر الألفاظ : أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1985م : 369.

(3) ديوان الخنساء : 186.

(4) المزهر في علوم اللغة وأنواعها : عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وآخرين، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، 1986م : 159/2.

ومن تجليات الأنا التي طالما أطلت علينا برأسها في خطاب الخنساء الذاكري، قولها تنعى أخاها، وتندب حظها وهي تسير في إثر نعشه؛ لتشيعه إلى مثواه الأخير [1]: (الطويل)

وَقَائلَـــــةٍ وَالـــــنّعشُ يَســـــبِقُ خُطْوَهَـــــا لِتُدرِكَـــهُ يَـــا وَيْـــلَ أَمِّـــي عَلَـــى صَـــخرِ

فهي هنا تسترجع ذكرى المكان الذي حمل جثمان أخيها بعد أن لقي مصيره بالقتل على يد قاتليه، إلى حيث لا يلتقيان بعدها أبـــــــدا، وحالتهـــــــا التـــــــي كانـــــــت عليهـــــــا ليســـــــت فـــــــي حاجـــــــة إلى مزيد وصف على ما حدته هي بنفسها، فندبها له وهي تتابع الخطوات في إثره، تولول وتندب، والذين يحملون النعش يسرعون به إلى مثواه الأخير، إلى درجة أنها لم تقدر على مواكبة خطاهم السريعة، ما بعث في نفسها الحزن ودفعها إلى مزيد من الأسى؛ لعدم قدرتها على إدراك نعشه.

وقد ربطت بين الحدث الجسيم الذي لم تكد تصدقه، والمكان الذي لم تكن تتخيل أنّ أخاها صخرا؛ لقوته وفروسيته، أن يصير إليه، و(الآخر) الذي تمثلته بقولها المشتمل على ضمير الغائب: (وقائلة...) وهي جملة مستأنفة مقطوعة عن عموم خطابها من القصيدة وعن البيت السابق عليها، الذي تقول فيه [2]: (الطويل)

صَـــــبَحْتَهُمُ بِالخَيـــــلِ تَـــــرْدِي كَأَنّهَـــــا جَـــــرَادٌ زَفَتْـــــهُ رِيـــــحُ نَجـــــدٍ إِلَـــــى البَحـــــرِ

فـ(قائلة) مجرورة اللفظ بـ(ربّ)، مرفوعة المحل بالابتداء، للحكم بزيادة (ربّ) في اللفظ، فـ"محل مجرورها رفع بالابتداء"[3]، وعلى ذلك فالجملة -كما ذكرت- مستأنفة، انتقلت من خلالها الخنساء بين معنيين متراكبين، أولهما تذكير القوم بإقدام وشجاعة أخيها صخر، واستبساله في الدفاع عنهم وصيانة حقوقهم، بما يوجب له عليهم الأخذ بثأره حفظا لمعروفه فيهم، انطلاقا منه إلى ثاني هذين المعنيين، وهو التماس العذر لها في شدة ملامسة حادث موته لذاكرتها، حتى إنها لتستعيده في كل موقف موجب لاستعادته واسترجاعه ، وذلك عبر الوظائف الأسلوبية المتعددة التي تمنح الخطاب صورة جدلية تبرز حقيقة مشهد موت صخر والحالة التي كانت عليها الخنساء عند تشييع جثمانه لمثواه الأخير، فهي تصف لنا ذلك عبر قولها السالف وهي تسير في إثر جنازته وهو محمول بين أيدي الرجال في نعشه: (يا ويل أمّي على صخر!)، ملتمسة في نعيه وبكائه نفسها التي فقدتها بفقده، والتعبير عن ذاتها التي هي جزء من ذاته؛ لأنّ أخاها بضعة منها، فهي جدلية تقوم هنا على الضدية بين الموت الذي ألحق صخرا بأهل القبور، ومن ثم كذلك هي، إذ إنها لم تعد تشعر بالأمان ولا الراحة من بعده، والحياة التي ظل من كان صخرا يدافع عنهم ومات فداء لهم على قيدها وهم –في نظرها- ليسوا أهلا لها، ففي استدعاء الخنساء من ذاكرتها "تنطلق من الحديث عن غريزتي الموت والحياة"[4]، وذلك مبرز كيف تعلق هذا الآخر بالخنساء، فالآخر الذي هو صخر جزء لا ينفصل عن شخص الخنساء، ولذا نراها تعبر عنه منطلقة من هذا الاعتبار.

وقد تضمنت هذه الجدلية علاقة أخرى بين أنا الخنساء في وصفها لمكان أخيها، ومدى ما احتملته من الحزن في متابعة نعشه الذي استلقى فوقه طريحا بلا حراك، وآخرية قومها، التي تمثلت عبر "مجموعة من الأفعال، مشكلة موقف الخنساء منهم"[5]، غير أنها في هذه العلاقة احتملت في طياتها لوما وعتابا على قومها عن طريق التضمين، فتحدثت عنهم بضمير الغائب وهم حضور يحملون نعش أخيها؛ لأنّها تعدهم غائبين عن مشهدها، فمن لم يُعنها على الأخذ بثأر أخيها في حكم الغائب، ومن ثم كانت جدلية الأنا والآخر في هذا الاسترفاد الذاكري الذي حال ذهنها دون استحضار غيره؛ لما يشكله الحدث في نفسها من الجسامة والاستعظام، ضدية لما تضمنته من معاتبة ولوم ومؤاخذة لقومها على تقصيرهم في حقها وحق أخيها المغيب.

ومن تمثلاتها لنوع هذه الجدلية قولها – أيضا- في تذكّرها لأخيها صخر، في وقت من الليل كان الناس قد هدؤوا فيه، ولاذ كل منهم بمكانه الذي هو به أولى في ذلك الوقت، فلم يبق للخنساء سوى الذكرى التي تؤرقها وتقض مضجعها قولها [6]: (المتقارب)

---

(1) ديوان الخنساء : 140-141 .

(2) ديوان الخنساء : 139 .

(3) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : جمال الدين ابن هشام الأنصاري ت (761ه)، تحقيق ، د. مازن المبارك و محمد علي حمد الله ، راجعه ، سعيد الأفغاني ، دار الفكر بدمشق ، سوريا ، ط1 ، 1964م: 145/1 .

(4) جدلية الأنا والآخر في شعر أبي الطيب المتنبي(مغامرة في القراءة والتأويل)، د. حسين الجداونة، طبعة ألكترونية1، إربد، الأردن، 2022م : 206 .

(5) جدلية الخفاء والتجلي، د. كمال أبو ديب: 148 .

(6) ديوان الخنساء : 226- 229 .

تَـــــذَكَّرْتُ صَـــــخرًا بُعَيـــــدَ الهُـــــدُو ... وِ فَانحَـــــدَرَ الـــــدَّمعُ مِنِّـــــي انحِـــــدارَا

وَخَيْـــــــلٍ لَبِســـــــتَ لِأَبطَالِهَـــــــا ... شَـــــلِيلًا وَدَمَّـــــرْتَ قَومًـــــا دَمَـــــارَا

تَصَـــــــيَّدُ بِـــــــالرُّمحِ فُرسَـــــــانَهَا ... وَتَهتَصِـــــرُ الكَـــــبشَ فِيهَـــــا اهتِصَـــــارَا

فَتُلحِمُـــــهُ القَـــــومَ تَحـــــتَ الـــــوَغَى ... وَأرسَـــــلتَ مُهـــــرَكَ فِيهَـــــا فَعَـــــارَا

فتستهل القصيدة بما يدل على أنّ أرقها وسهادها ليلا لم يكن إلا بسبب الذكرى التي وطأت فراشها قبل أن تطأه هي بأقدامها ، فقد اقترن الليل عندها " بالسهد و بمجانبة الرقاد فبمقدار تلبد الهموم في حنايا النفس يتجسد الليل الذي يزيل فيه النوم عن المؤرق المساهد"[1] فراحت تأخذ هذه الذكرى منها كل مأخذ، فأتت على كثير من خصال أخيها صخر وما كان منه في أوقات الحرب، فانهمرت لذلك دموعها انهماراً وانحدارا على حد قولها.

فاستحضارها لمشاهد البطولة التي كانت حصرا في شخص أخيها، ابتداء من لبس صخر للدرع تأهباً للحرب، ومرورا بتدمير الأعداء وصيدهم برمحه الذي لا يخطئ من يصوبه نحوه من الفرسان، وقدرته على اهتصار الكبش وهو رأس القوم ورائدهم، وانتهاء بإرساله إلى أبطال بني سليم ينتهشونه بسيوفهم وهو ملقى بين أيديهم بعد أن ألحقته بقومه محملاً بالخيبة وسوء المنقلب.

ويلاحظ في هذا النظم أنها قد راعها في تلك الذكرى ما كان يقع من أخيها نتيجة فعال البطولة، مع التأطير لتلك الأحداث والمكان الذي تقع فيه بعلاقة قوية الوشيجة، غير أنها علاقة ضمنية، فهي هنا لم تصرح بذكر مكان بعينه، لعل في عدم التصريح بالمكان بلاغة ليست في التصريح به، إذ إنّ مكان وقوع الحدث من الأمور اللزومية، فإنّ لكل حدث زماناً ومكاناً يقع فيهما ، ذكرا أو لم يذكرا، وإنّ للمكان في النظم أهمية تظهر في معيار بناء النظم، إذ عرض للخنساء استحضار بعض ما يظهر عذرها في انهمار دموعها بالقدر الذي لم تتمالك معه نفسها فتردّ تلك الدموع عن السيلان على خدها.

وفي تذكرها لبلاء أخيها صخر في الحرب، وهي المكان الذي لا يتميز فيه البطل المقدام من الخامل الجبان، أدعى الأسباب إلى انهمار دموعها، وهي هنا تعكس صورتها والناس في هدأة وراحة ودعة من الليل، الأمر الذي يتطلب منها أن تكون كهؤلاء الذين يصيبهم قسط من ذلك الهدوء، غير أنها ليست كذلك، فأرق الذكرى ما زال يتلبس بنفسها، لا سيما أنّ الذكرى قد أعادت عليها موقفا من المواقف التي تذكرها بموته، فهو لم يمت حتف أنفه، بل مات في إحدى المعارك التي جمعته ببني أسد.

ونلمس في أسلوب الالتفات البارع الذي عمدت من خلاله إلى استحضار الماضي وجعله ماثلا بين يديها تخاطبه خطابها للعاقل الحاضر، بين قوله:(تذكّرت صخرا...) وقد عاملته معاملة الغائب، وقولها: (وخيل لبست...) بإبراز شخصه في الخطاب كأنّه حاضر أمامها تبادله الحديث، وبينهما التفات من ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب[2]، ومن تجليات بلاغة هذا الالتفات، إشعار المتلقي بمدى التماهي والامتزاج بين ذات كل من الخنساء وأخيها صخر، حتى لكأنهما ذات واحدة انفصلت في جسدين، وظهر ذلك عبر تمثلها لشخص أخيها الميت في شخصها هي، وذلك من خلال اندراج الأنا الخنساوية مع آخرية أخيها في نسق يجلي عن "فاعلية الخطاب الشعري المشكل لطاقة تخيلية فاعلة، من خلال بروز الارتباط بين ذات الشاعر وهذا الآخر"[3]، للكشف عن ثنائية التلاحم بينهما، ومن ثم كان المكان الذي هو ساحة الحرب، دالا على بطولة أخيها، وبطولة أخيها برهان على مدى تعلقها به؛ لشعورها بالهوان بعد قتله، وهوانها سبب في توارد هذه الذكرى على خاطرها بما أقض مضجعها وأرق عيونها فلم تهجع حينها .

أمّا هنا، وفي هذه الأبيات، فإنها تتعرض لمعالجة أثر الفقد وتداعيات الذكرى، من خلال المكان، الذي شكل بدوره عاملا مؤثرا في المناقضة بين الذات التي هي (أنا) الشاعرة، والذات الأخرى التي تقع منها على طرف النقيض، فتبث حزنها ذلك المكان الذي احتله البدر لما انكسف، والجبل الشوان بمسيله لموته، فتقول [4]: (الطويل)

(الطويل)

أَلَا اختَـــارَ مِردَاسًـــا عَلَـــى النَّـــاسِ قَاتِلًـــه ... وَلَـــــو عَـــــادَهُ كنّاتُـــــه وحَلائِلُـــــه

(1) الليل في الشعر الجاهلي : جليل رشيد فليح ، مجلة أداب الرافدين ، جامعة الموصل ، العدد 9 ، 1978م : 542.

(2) ينظر: علم البديع : د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت ، لبنان: 144 .

(3) جدلية الأنا والآخر في شعر العباس بن الأحنف(قراءة في نسقية التضاد)، جاسم محمد عباس – عارف عبد صايل، مجلة البحث العلمي في الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، مصر، جزء 3، عدد 17، 2016م : 5 .

(4) ديوان الخنساء : 247-249 .

وَقَلّـــــنَ أَلا هَـــــلْ مِـــــن شِـــــفاءٍ يَنَالُـــــهُ ... وَقَـــــد مَنَـــــعَ الشِّـــــفَاءَ مَـــــن هُـــــوَ قَاتِلُـــــه

وَقَـــــدَ مَنَـــــعَ الشِّـــــفَاءَ مَـــــن شَـــــدَّ قَـــــاتِلًا ... وَقَـــــد عَلِقَـــــتْ هِنـــــدُ بـــــنِ عَمـــــرٍو حَبَائِلُـــــه

فَلَمَّـــــا رَآهُ البَـــــدرُ أَظْلَـــــمَ كَاسِـــــفًا ... أَرَنَّ شَـــــوَانٌ بُرْقُـــــهُ، فَمَسَـــــايِلُهُ

رَنِينًا وَمَا يُغْنِي الرَّنِينُ وَقَد أَتَى ... بِنَعشِكَ مِن فَوقِ القُرَيَّةِ حَامِلُه

فهي تزمع من أول الأمر أن قتل مرداس دون سائر قومه، كان لشرفه وعظم منزلته، فاختيار قاتله له لذلك، ما دعا كناته وحلائله إلى الدعاء على قاتله في كل زيارة لمرداس في مرض موته، مع تمنيهم في الوقت نفسه شفاءه من طعنته، مع ما يعلمن من أنّ ذلك محال؛ لأنّ الطعنة مفضية للموت ولا يرجى منها شفاء، فكأن هذا القاتل أخذ بطعنته له أسباب التداوي، فلم يبق له إلا مصيره إلى الموت المحقق، ولإظهار مكانة مرداس التي تبوأها في الناس لم يكن لها محيدٌ عن توظيف بعض أساليب العربية التي هي من خاصة الشعر، فراحت تثبت له هذا الشرف الذي عبرت عنه في مستهل القصيدة بالاستعارة الضمنية.

ذلك أنّها شبهت مرداسا في مقامه بالبدر الذي توفرت له أسباب الإضاءة ، فليس أمامه ما يحجبه عن الظهور من سحاب أو غبرة، كما أنّ مرداسا لعظم منزلته ورفيع شأنه قد كان بتلك المكانة الرفيعة، ولمزيد تعظيم له تضعه بالمكان الذي لا يتقاسمه معه غيره، فهو كالبدر وأقرانه كالسحاب الذي لم يستطع حجبه عن الظهور، ثم إنّها سريعا ما تنتقل إلى استعارة أخرى فيما يسمى في البلاغة الجديدة بالمتواليات أو التعالقات الاستعارية " التي تدخل السياق الأصغر في سياق أكبر؛ ليشكل سلسلة لغوية ممتدة"[1] فتشبه أهل الجبل الذي دق مسيل الماء منه فتحدر مسرعا في بكائهم بل نياحتهم عليه بمسيل " ذلك الجبل الذي يشنّ الماء من أعلاه لأسفله"[2]، ليكون سفح هؤلاء لدموعهم أدقَّ في التعبير عن مصابهم في قتل مرداس.

ذلك إلى جانب ما شكلته بلاغة الحذف من إيجاز في اللفظ، مع ما يضفيه على الخطاب من دلالة لم تكن لتعالج قضية النظم إلا بها، فقول الخنساء: (أرنّ شوان برقه، فمسايله) موضع حذف للمضاف الذي هو (أهل)، وهو على شاكلة قوله تعالى[3]: ﴿ لتنذر أمّ القرى﴾ [الشورى: 7]، والتقدير: أرنّ أهل شوان، فالرنين وإن كان سائغ الحصول من الجبل نفسه، إلا أنّ ذلك ليس مقصودا هنا، والدليل على أنّ المقصود رنين أهل شوان وليس شوانا نفسه، عطف الخنساء (مسايله) على صفة الجبل وهي (شوان) وهي صيغة مبالغة، تبرز كثرة رنين أهل شوان على مرداس، فلو كان الرنين للجبل الذي يتحدر منه الماء، لما جاز عطف (مسايله) عليه، فرنينه يعني جريان دموعه، ومسايله كذلك جريان دموعه، وهما لا يجتمعان لأنه إطناب من غير داع، والمقصود أنّ أهل هذا الجبل، والجبل نفسه بكيا على موت مرداس، والغرض من الحذف هنا "الدلالة على عموم"[4] الباكين على مرداس من أهل ذلك الجبل.

ومن ثم فإنّ الوظائف الحيوية التي أضفتها جملة تلك الإزاحات البلاغية على هذا النص، تعمل على ما حرصت الخنساء على التأكيد عليه، وهو إعطاء الخطاب صورة عامة تتسع من خلالها رؤية القارئ ، حتى يقف على مدى ما قد حققته من مشاركة بين الخنساء وغيرها ممن كان لمرداس عليهم فضل فشاطروا الخنساء بكاءها والحسرة عليه معها، فتشكّل لدينا في هذا النص الذي استنطقت الخنساء ذكرها فيه بواسطة الأماكن التي جعلت لكل مكان منها خاصية ليست للآخر، في أن تتوحد الأنا مع الآخر الذي شاطرها حزنها على مرداس، فالبدر بما احتله من مكان عال، مبرز لرفعة مرداس، والشون، وهو وسم من سمات الجبال ذات المسيل، دال على شدته، والقرية، وهي المكان الذي فيه قبره، محيل على ذلك الأثر الذي اندفعت بسببه الذكرى من باطن عقل الخنساء ليكون سببا في بكاء زوجها، والنحيب عليه، وذلك عبر اللغة من حيث " كان تمثيلها للكلمات – سواء تعلق الأمر بأشياء أو بكلمات- فالوعي الذي هو الكلام أو الخطاب لا يعرف القبض عليها إلا من خلال اللغة"[5]، فهي وإن لم تصرح بأنّ حدود الأماكن التي استدعتها من سجل ذاكرتها لتدل بها على أشياء بعينها، قد تكون غامضة على مخاطبها، فقد وظفت من الظواهر اللغوية ما يشير إليها إلماحا.

أما هنا، فتجلي الخنساء عن مظهر من مظاهر التذكر، إذ لم يكن لها سبيل آخر في التعبير عمَّا ألم بها من الحزن والأسى لفقد أخيها ، سوى استرجاع الذكريات التي جالت بخاطرها تجوال السحب في السماء، فلاقت منها خاطرا خاليا إلا من ذكر أخيها صخر، فهمت بالإفصاح عمّا يؤلمها من توارد تلك الخواطر عليها، فقالت [6]: (الطويل)

---

(1) الاستعارة في النقد الأدبي الحديث(الأبعاد المعرفية، والجمالية) : 15 .

(2) ديوان الخنساء : 249.

(3) الحذف البلاغي في القرآن الكريم، د. مصطفى عبد السلام أبو شادي، مكتبة القرآن للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1991م : 80 .

(4) الحذف البلاغي في القرآن الكريم :80 .

(5) التحليل النفسي والأدب : جان بيلمان نويل، ترجمة: حسن المودن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 1997م : 40 .

(6) ديوان الخنساء : 317 .

تَـــــذكَّرتُ صَـــــخرًا إنْ تَغنّـــــتْ حَمَامـــــــة ... هَتُـــوفٌ عَلَـــى غُصـــنٍ مِـــن الأيـــنِ تَســـجَعُ

فَظَلْـــــتُ لَهَـــــا أبكِـــــي بِعَـــــينٍ غَزِيـــــرَةٍ ... وَقَلْبِـــــي بِمَـــــا ذَكَّرْتِنِيـــــه مُوجَـــــعُ

تُـــــذكِّرُنِي صَـــــخرًا وَقَـــــد حَـــــالَ دُونَـــــهُ ... صَـــــفِيحٌ وَأحْجَـــــارٌ وَبَيـــــدَاءُ بَلْقَـــــعُ

فَبَكّـــــي بِعَـــــينٍ مَـــــا يَجِـــــفُّ سُـــــجُومُهَا ... هَمُـــــولٍ تَـــــرَى آمَاقَهَـــــا الـــــدَّهرَ تَـــــدمعُ[1]

أرَىَ الـــــدَّهرَ يَرمِـــــي مَـــــا تَطـــــيشُ سِـــــهَامُها ... وَلَـــــيسَ لِمَـــــن قَـــــدَ غَالَـــــهُ الـــــدَّهرُ مَرجِـــــعُ

فَـــــإنْ كَـــــانَ صَـــــخرَ الجُـــــودِ أصْـــــبَحَ ثَاوِيًـــــا ... فَقَـــــد كَـــــانَ فِـــــي الـــــدُّنيَا يَضُـــــرُّ وَينفَـــــعُ!

فهي في هذه الأبيات تشير إلى أنّ لهذه الذكرى انبثاقات تفرع منها تخاطر العقل مع الماضي، إذ لم تكن لتراودها ما لم تتوفر لها أسبابها، ولأنها تتبع في كل مقام ما يثير في نفسها العزم على البكاء؛ لشدة توجعها على إخوانها وزوجها، سهل عليها توفير المناخ المناسب لاستثارة تلك المواجع، فهي تستحضر الصورة المعبرة عن مواجعها من فراغ لا يدركه إلا من له حظ في الشعر، فهي تمهد لموضوعها بأشياء تستدعيها من ذاكرتها وتخرجها إلى العلن دون أن يعلم بها الناس فالشعراء كما يقول فرويد " يعرفون أشياء بين السماء والأرض، لم تتمكن بعد حكمتنا المدرسية من الحلم بها، فهم في معرفة النفس شيوخنا نحن الناس العاديون؛ لأنهم يرتوون من منابع لم يتمكن العلم بعد من بلوغها"[2]، ولذلك حين أطلت عليها إحدى الحمامات من فوق أحد الأغصان بصوتها الشجي الذي يشبه صوت النياحة، توجهت من فورها مسرعة للاستجابة، فشاطرتها بكاءها، الذي أوقعته بلفظ الضد، فعبرت عن شجى الحمامة وعن صوتها الحزين، بالتغني؛ ليكون أدل على مقصودها من غيرها، ففي استقبال النفس لما عساه يبعث فيها الفرح والسرور بالحزن، تكون قد بلغت الغاية القصوى في ذلك الحزن " وقد وجد شعراء ما قبل الإسلام الحمام النائح اثارة للواعجهم ، وباعثاً من بواعث أساهم لكثرة نواحه وشدة حنينه ، فقد أحسوا بأن شجوه وهديله مفعمان بالمرارة ، فلذلك عد صوته بكاءً ، لما كان يعاني من مشاق وألم البعد ولوعة الفراق وشدة الايام ، ومن هنا عدَّ الشاعر الحزين صوت الحمام بكاء حتى حينما يطلق العربي على هذا الصوت لفظة (تغنى ، أو غناء) لا نراه يطرب لهذا الغناء ، وإنما نجده يحزن ويشجى لذلك ، فكأنما ترسخ لدى العربي أنّ كلَّ ما يصدر عن هذا الكائن الحزين يبعث إلى الحزن والأسى حتى وإن كان غناءً " [3] .

ومن ثم تنطلق بتلك الذكرى من ذلك المكان الذي احتلته الحمامة فوق الغصن، إلى مكان آخر، هو محل الحزن وموضعه الذي يشغله، فالقلب هو المكان الذي يعبر به عن الحزن والسعادة، وإن كانت دلائل الحزن والمسرة تظهر في سائر الجوارح، ولأن صوت الحمامة سلك من نفسها مسلكه حتى توطن قلبها، بدأت تتبلور ملامح تلك الذكرى التي أثارتها ونبهتها بصوتها هذا على أنّ مصابها لم يزل متصلا بزمن وقوع حادث مقتل أخيها وجرحها لم ينكأهُ بعد ناكئ، لتبني على ذلك المعنى معنى جديدا مشتقا منه، بقولها: (تذكّرني صخرا وقد حال دونه...) فتذكرها صخرا لم يكن مجردا، بل جاء مصحوبا كذلك بأسبابه ودوافعه التي تحفز النفس عليه، فالمكان الذي تحول إليه صخر أخوها بعد وثير الفراش ولين العيش، وهو الصفائح والأحجار في تلك البيداء التي تضم عظامه، هو الداعي لتلك الخطرات التي تراكمت على بالها، فألبت في نفسها الحزن على أخيها .

وإنما استنكرت الخنساء على الدهر حوادثه التي لا تبقي على حيّ؛ لأنّ أخاها ممن كان لهم في الناس أثر، فكان يضرُّ فيما احتاج قومه إلى أن يضرَّ بعدوهم، وينفع في حال المسالمة، بجوده وحفاظه على أهله، وصيانته لعشيرته مما قد يحل بها من طوارق الليل أو النهار، وقد انتقلت لإبراز هذه الغايات المتباينة عبر معانٍ عدة، فتوظف ضمير المتكلم المرفوع فاعلا بالفعل (تذكّرت)، والفعل (ظلت)، لحصر الأسى في نفسها وقصره عليها، فهي الوحيدة التي تتأثر لهذا الحادث، وتسترجع تفاصيله بين الحين والحين، دون غيرها.

فهي لا تعرض لحصر دلالة الحزن الذي استدعته الذكرى، أو الحزن الذي استدعى الذكر في ذاتها لمجرد إبراز ذلك الحزن والإفصاح بمدى ما تلحقه بها معاناتها، بل لتخبر أنّها في معترك بين (الأنا) الذي "هو مركز الشعور والإدراك والإرادة"[4]، والأنا

(1) الأينُ: شجرٌ بالحجاز، واحدتُها: أينةُ، ديوان الخنساء :317 .
البيداءُ: الصحراء الخاوية : ديوان الخنساء : 318 . ، البلقعُ: الأرض القفر ، القاموس المحيط :159 .
السُجومُ: الدمع و الماء الكثيرُ المغزار، القاموس المحيط، (سجم) : 749 .
(2) التحليل النفسي والأدب، جان بيلمان نويل : 7 .
(3) صور الحمام في شعر صدر الإسلام : أ.م. د. علي حسين التمر ، مجلة جامعة تكريت للعلوم ، المجلد 20 ، العدد 2 ، شباط 2013م : 89 .
(4) التحليل النفسي للأدب (من المؤلف إلى القارئ) : د . بو بكر فضيل ، مجلة التواصلية ، الجزائر ، المجلد 07 ، العدد 21، 2021م: 67 .

الآخر، الذي هو أحد انبثاقات الأنا الأعلى المدافع عن القيم والأخلاق الملتزمة في المجتمع أو القبيلة أو ما إلى ذلك[1]، فهي في صراع نفسي كثيرا ما يظهر في تذكرها لكلا أخويها معاوية وصخر، بطريق التضمين أو التصريح، وذلك حين تسفر معانيها الخطابية عن أنّ شطر حياتها المنصرم في كنفهما هو الذي يشكل الحياة الحقيقة، على أنّ ما تعيشه بعد موتهما لا يشكل – في نظرها – إلا انشطارا وانقساما تعيشه نفسيا ووجدانيا.

وهنا يأتي دور الظواهر البلاغية في إبداء مدى ما وصل بها ذلك الانقسام، فتنتقل من الحديث عن الغائب من قولها: (إن تغنّت حمامة) إلى ضمير المخاطب من قولها: (بما ذكّرتنيه)، إذ تخاطب الحمامة بفعل التذكير بنسبة السبب في إحياء تلك الذكرى إليها، وهو هنا من أمثلة "انصراف المتكلم عن الخطاب إلى الإخبار"[2]، والغرض منه كما هو ظاهر، الإشعار بأنها في حضرة الحمامة، وأنها لم تزل تتأثر لصوتها الشجي، بما يبعث في نفس المخاطب الانطباع بالحسرة متأثرا بحسرة الخنساء، ومنه تنتقل وتلتفت أيضا من ضمير المخاطب إلى ضمير الغيبة مرّة أخرى، من قولها: (تذكّرني)، وهذا من تمظهرات الاضطراب وخيبة الأمل، فتذكيرها لها بهذا الكم من الأسى، موقع في نفسها الألم والارتباك في آن معا، فهي تزواج بين المعاني والدلالات التي لا تكاد تجتمع في كلام ما ، لتبرز المدى الذي طالما اعتصرها فيه الألم في مقام أشبه بذلك المكان.

الخاتمة

- كان للذاكرة المكانية أثر مهم في الكشف عن ملابسات الأحداث التي جرت للخنساء قبل وبعد مقتل أخويها صخر ومعاوية
- للذاكرة و المكان علاقة قوية عند الشاعرة تمثلت في تذكرها لبعض الأماكن التي كان لها تأثير في حياتها ومن تلك الأماكن مكان دفنهم .
- تشكلت ذاكرة الأنا والآخر عندها من خلال استرجاعها لأحداث معينة و أماكن ذات تأثير كبير في حياتها .
- تشكلت ملامح الذكرى لدى الخنساء بتشكلات البيئة التي تعيش فيها وتتفاعل معها، ويظهر ذلك في الصور والاستلالات التي لها روافد من الطبيعة، فكانت كثيرا ما تعبر عن مضمرات شعورها في الحنين واللوعة والتحسر عبر إيراد ما يشير إلى ذلك من الحيوانات أو الطيور أو الجبال والأماكن وغير ذلك .
- توظيفها للعناصر اللغوية المنسجمة مع الأحداث، وتأثيرها في النفوس، فكثيراً ما نقف في شعرها على استعمالها لتلك الأساليب الإنشائية التي تتماهى مع طبيعة الذاكرة وذكر المحامد التي عرف بها المتذكر.

Sources:

1. A metaphor in modern literary criticism (cognitive and aesthetic dimensions), d. Youssef Abu Al -Adous, Al -Ahly for Printing, Publishing and Distribution, Amman, Jordan, T1, 1997 AD.
2. Al -Jana Al -Dani in the letters of meanings: Al -Hassan bin Qasim Al -Muradi, investigation: Fakhr al -Din Qabawah - Muhammad Nadim Fadel, Dar Al -Kutub Al -Alami, Beirut, Lebanon, T1, 1992 AD.
3. Al -Kamil in Language and Literature: Abu Al -Abbas Muhammad bin Yazid Al -Mubarrad T (285 AH), investigation, d. Abdul Hamid Hindawi, Ministry of Islamic Affairs, Endowments, Call and Guidance, Kingdom of Saudi Arabia, D, 1998 AD.
4. Al -Mizhar in Language Sciences and its types: Abd al -Rahman Jalal al -Din al –Suyut , Investigation: Mohamed Ahmed Jad Al -Mawla and others, Modern Library Publications, Beirut, 1986 AD.
5. Arabic rhetoric (rooting and renovation): Dr. Mustafa Al -Sawy Al -Huwaini, Al -Maarif Facility, Alexandria, Egypt, 1985 AD.
6. Disclosure of the problem in grammar: Ali bin Suleiman Al -Haidara Al -Yamani, investigation: Hadi Attia Matar, Damascus, Syria, T1, 1984 AD.
7. Diwan Al -Khansa, Explanation of Abu Al -Abbas Fox, investigation: Dr. Anwar Abu Swailem, Dar Ammar Publishing and Distribution, Amman, Jordan, T1, 1988 AD.
8. Existential, John McCuri, translation: Dr. Imam Abdel -Fattah Imam, World of Knowledge, Kuwait, No. 58, 1982 AD.
9. Founded classic Arabic poetry (ancient Arabic poetry), Evald Wagner, translated by: Dr. Saeed Hassan Beheiri, Al -Mukhtar Foundation for Publishing and Distribution, Cairo, Egypt, 1st edition, 2008 AD.

(1) ينظر : التحليل النفسي والأدب (من المؤلف إلى القارئ) : 68 .

(2) البلاغة العربية (تأصيل وتجديد) : الدكتور مصطفى الصاوي الحويني، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، مصر ، 1985م : 186.

10. Founded classic Arabic poetry (ancient Arabic poetry), Evald Wagner, translated by: Dr. Saeed Hassan Beheiri, Al -Mukhtar Foundation for Publishing and Distribution, Cairo, Egypt, 1st edition, 2008 AD.
11. Jawaher Al -Awla: Abu Al -Faraj Qudamah bin Jaafar, investigation: Muhammad Mohiuddin Abdel Hamid, Dar Al -Kutub Al -Alami, Beirut, Lebanon, T1, 1985 AD.
12. Mughni al -Labib on the books of Al -Aytib: Jamal Al -Din Ibn Hisham Al -Ansari T (761 AH), investigation, d. Mazen Al -Mubarak and Muhammad Ali Hamadallah, reviewed, Saeed Al -Afghani, Dar Al -Fikr in Damascus, Syria, 1st edition, 1964 AD.
13. Night in pre -Islamic poetry: Jalil Rashid Falih, Al -Rafidain Literature Magazine, University of Mosul, No. 9, 1978 AD.
14. Pictures of the bathroom in the poetry of Islam: Prof. Dr.. Ali Hussein Al -Tamr, Tikrit University Journal of Science, Volume 20, No. 2, February 2013AD.
15. Poetry of the place in modern Arabic literature: Peter Al -Hallaq - Robin Ostl - Stephen Field, translation: Noha Abu Sadira and another, National Center for Translation, Cairo, Egypt, T1, 2014 AD.
16. Poetry to stand on the ruins (from pre -Islamic to the end of the third century) an analytical study: Dr. Azza Hassan, Damascus, Syria, D, 1968 AD.
17. Psychoanalysis and Literature: Jean Pelman Nawil, translation: Hassan Al -Mudan, Supreme Council of Culture, Cairo, Egypt, T1, 1997 AD.
18. Psychological analysis of literature (from the author to the reader): d. Bou Bakr Fadil, Communication Magazine, Algeria, Volume 07, No. 21, 2021 AD.
19. Science Al -Budaiya: Dr. Abdel Aziz Atiq, Arab Renaissance House, Beirut, Lebanon.
20. Single deletion in the Noble Qur'an, d. Mustafa Abdel Salam Abu Shadi, Al -Qur'an Library for Printing and Publishing, Cairo, Egypt, T1, 1991AD.
21. The aesthetics of the place, Gaston Bachelard, translation: Ghaleb Helsa, University Corporation for Studies, Publishing and Distribution, Beirut, Lebanon, T2, 1984 AD, Introduction to the translator.
22. The aesthetics of time and space in Dhu al -Ramah, d. Aisha Muhammad Omar Suleiman, Al -Qurtas Magazine for Humanities, Benghazi, Libya, No. 17, 2022 AD.
23. The contemporary Saudi novel (a study in the components of the narrative text), d. Zuhair Hassan Al -Omari, Dar Al -Masry for Publishing and Distribution, Cairo, Egypt, T1, 2012.
24. The days of the Arabs in the pre -Islamic era, Muhammad Abu al -Fadl Ibrahim - Ali Muhammad al -Bajawi, the modern library, Beirut, Lebanon, D, d, d.
25. The dialectic of secret and manifestation (structural studies in poetry), d. Kamal Abu Deeb, Dar Al -Alam for Millions, Beirut, Lebanon, T3, 1984 AD.
26. The dialectic of the ego and the other in the poetry of Abu al -Tayyib al -Mutanabbi (an adventure in reading and interpretation), d. Hussein Al -Jadouneh, Electronic Edition 1, Irbid, Jordan, 2022 AD.
27. The dictionary of what was brought up, Abu Ubaid, Abdullah bin Abdul Aziz Al -Bakri, investigation: Mustafa Al -Saqa, World of Books, Beirut, Lebanon, T1, 2001 AD.
28. The ego and the other (the duplication of acting art), d. Saleh Saad, Knowledge World, Kuwait, 274, 1990 AD.
29. The ego and the other in the poem "Reading in the face of London" by the poet Ghazi Al -Qusaibi is a topic: Ashjan Muhammad Hindi, King Abdulaziz University Journal, Literature and Humanities, Volume 26, No. 3, 2018 AD.
30. The ego and the other in the poetry of Al -Mutanabbi (a study in the problem of the phenomenon and its manifestations), Mufleh Al -Huwaytat, the Arab Journal of Humanities, Kuwait, Volume 33, No. 131, 2015 AD.
31. The Natural and the other in the poetry of Al -Abbas bin Al -Ahnaf (reading in the contradiction of contradiction), Jassim Muhammad Abbas - Aref Abdul Sail, Journal of Scientific Research in Arts, Ain Shams University, Cairo, Egypt, Part 3, No. 17, 2016 AD.
32. The novel and the art of storytelling (the paradox in contemporary Arabic story Cesa Qasim) Chapters of the Literary Criticism Magazine, Volume 2, No. 2, January - February - March 1982 AD.

33. The place in the memory of the pre -Islamic poet: Secretary, an article published via Alloka Network: 2015..
34. The surrounding dictionary: Majd al -Din Muhammad bin Yaqoub al -Fayrouz Abadi (d. 817 AH), a revised version of the comment of Sheikh Abu al -Wafa Nasr al -Hurini al -Masry al -Shafi'i (d. 1291 AH), reviewed and commented on by Anas Muhammad al -Shami and Zakaria Jaber Ahmed, Dar Al -Hadith, Cairo, 2008 AD.
35. The un opened communication, Diwan Al -Khansa (a study in the Arab semiotics): Afaf bint Omar bin Abdullah Al -Ateeq, Journal of Linguistic Studies, King Faisal Center for Research and Islamic Studies, Volume 16, No. 1, 2014 AD.